أثر العقيدة الإسلامية في فن الزخرفة عند المسلمين

● بقلم : نجاة شاكر محمد زيدان

مدخل الى البحث

اختلفت آراء النقاد والمؤرخين في التعرف على التفسير الدقيق الجامع المانع لكلمة « الفن » وكان لكل منهم في ذلك تفسير وتحليل .

وعند القاء نظرة على هذه الآراء المفسرة للفن يمكن ان نخرج منها بما هو قريب من الدقة عندما نقول : ان كلمة الفن تدور دائما حول الانسان الذي خلقه الله فاحسن خلقه وأعطاه من الحواس ما يمكنه من الاهتداء الى جميل صنع الله ، ومنحه من الوسائل ما ييسر له التعبير عن هذا الجمال .

من هذا المنطلق نجد ان الفن موهبة الهية يعبر بها الانسان عن احاسيسه المتنوعة تجاه هذا الكون المصنوع أحسن صنعة والمنظم أدق تنظيم ، والممتلىء بالمحسوسات القادرة على أن تذكي مشاعره وترهف حسه وتزكي عواطفه كلما أطال النظر وانعم الفكر وأطلق الخيال .

وعند التعبير الانساني عن هذا الكون نجد انسانا يعبر بالكلمة العذبة المنغومة وهذا هو الشعر ، وآخر يعبر باللحن والتوقيع على آلة موسيقية وتلك هي الموسيقى ، وثالثا يستعمل الريشة والقرطاس والخامات ينقل عليها مشاعره وأحاسيسه فتكون اللوحات او الفنون الزخرفية ... وكلها من شاعر وموسيقي ورسام نسميه فنانا ، وهم ينقلون بوسائلهم الخاصة صورة من صور قدرة الله سبحانه في هذا الكون العريض .

فـي المـوضوع :

اولا : مكانة الفن في الاسلام :

موضوع بحثنا هذا يدور حول نوع من انواع الفن وهو الفن التشكيلي الذي يعبر فيه الفنان عن انفعالاته وأحاسيسه وعواطفه وخبراته في الحياة في قالب تشكيلي يؤدي فيه الانسجام عملا رئيسيا ليلائم بين الخطوط والمساحات والالوان وأنواع التوافق والتباين والاتزان التي تعكس صلة الانسان بالكون وادراكه لقيمته .

وقد ظل الانسان يمارس هذه الموهبة وتلك القدرة منذ أقدم عصور التاريخ بأساليب كثيرة مختلفة ، تأثرت تأثرا ملحوظا باختلاف البيئات من حيث مواردها الطبيعية وعاداتها وتقاليدها وقيمها الدينية ، وكان من نتاج ذلك فنون الحضارات المعروفة التي تعاقبت في مراحل متتابعة من عصور التاريخ .

وفي العقد الثاني من القرن السابع الميلادي أشرق على العالم نور الاسلام ، ذلك الدين الذي جاء من عند الله ليكون هداية للبشرية ونقلا لها من ظلمات الكفر الى أنوار الايمان .

ولقد جاء الدين الاسلامي منهجا شاملا متكاملا للحياة البشرية الراشدة وللمجتمع الانساني الفاضل الذي يستطيع الانسان فيه أن يتفاعل مع كل معطيات الخالق سبحانه في هذا الكون الكبير تفاعلا يحقق له مصلحته في الدنيا ليعيش سعيدا آمنا ، ومصلحته في الآخرة ليلقى ربه مرضيا عنه .

وما ترك المنهج الاسلامي لونا من ألوان الحياة الانسانية الناضجة المتفتحة على الخير الا وجه الانسان اليه ودعاه الى التعامل معه ، فمن عبادة الله الى العمل الدائب للحصول على لقمة العيش الكريمة الى التمتع بطيبات الحياة ، والاستمتاع بملذاتها في غير حرام « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (١) الى ضرورة التأمل في جميل صنع الله وروائع خلقه الى تنمية المشاعر الخيرة وتغذية العواطف النبيلة ، الى حب الجمال والنظافة والنظام في كل شيء .. هذا هو الاسلام الذي من الله به على الانسانية .

ويأتي الفن وسيلة لتنمية هذه الأحاسيس والمشاعر من جانب ، وتنمية للتفاعل مع معطيات الله لعباده في هذا الكون من جانب آخر . هنا تبرز مكانة الفن في الاسلام .

ثانيا : الانسان المسلم واثره في الفن :

انطلق المسلم يحمل في عقله وقلبه هذه المعاني الانسانية الكبيرة ويطالبه دينه بأن يوصل هذه المعاني الى البشرية كلها يدعوها بهذا الدين الى الحق والخير والهدى ، داعيا الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة حينا ، ومجاهدا في سبيله بأدوات الحرب حينا آخر ، لا يني حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، فاستطاع المسلم فيما لا يجاوز نصف قرن من الزمان أن ينشر هذا الفكر القويم وتلك المبادىء الانسانية الفاضلة وان يحول الناس من الضلال الى الهدى بما يحمله اليهم من حضارة حقيقية تضمنها منهج الاسلام .

ولم يكن موقفه من الحضارات التي فتح بلادها موقف المتعنت أو الرافض ، وانما كان يأخذ منها ما لا يخالف عقيدته وحضارته ، ويعطيها من حضارة الاسلام ما يحقق لها السعادة في الدنيا والآخرة .

ومن هنا كان التأثير والتأثر بين الحضارة الاسلامية وغيرها من الحضارات على مدى التاريخ الاسلامي كله .

ثالثا : موقف المستشرقين من تسمية فن المسلمين :

فن المسلمين مظهر من مظاهر الحضارة الاسلامية خضع ـ كغيره ـ للدراسة والتحليل من علماء الغرب والشرق من غير المسلمين ، أولئك الذين أطلق عليهم اسم المستشرقين ، وقد دأب بعض هؤلاء المستشرقين في بحوثهم ـ وأغلبهم صليبيو النزعة ـ على تحقير الاسلام والمسلمين في شتى المجالات ، ومن هذه المجالات مجال فن المسلمين ، فرموا هذا الفن بشتى التهم والأباطيل ودسوا في تعريفهم له قيما خاطئة ومفاهيم مغرضة .

وكان أول ذلك أن أطلقوا عليه اسم : « الفن المحمدي » . ونحن نجد في هذه التسمية منطلقا لباطل كبير يريدون ان يلصقوه بهذا الدين وهو زعمهم بأن هذا الدين من عند محمد ...

وأطلق بعضهم على فن المسلمين اسم « الفن العربي » وأحيانا قالوا عنه : « الفن المغربي » وكل من التسميتين تستهدف هدفا واحدا هو تمزيق وحدة العالم الاسلامي بتقسيمه الى هذه القوميات المتعددة التي حاربها الاسلام يوم نادى على كل

من دخل فيه بقوله سبحانه : « وان هـذه أمتكم أمة واحدة » (٢) ويوم أعلن لتلك الأمة أنها خير أمة أخرجت للناس .

وقد حاول المستشرقون جاهدين أن يتجاهلوا كلمة المسلمين عند الحديث عن الفنون التي عبروا بها عن حياتهم، فأطلقوا على فنهم اسم : « الفن الشرقي » بل ان منهم عدد غير قليل صرحوا برغبتهم في تفتيت وحدة المسلمين فقسموا هذا الفن الى قوميات متعددة فقالوا : الفن الفارسي والفن التركي والفن الهندي وكلها تسميات غير دقيقة فضلا عما تحمله من سيء النوايا للاسلام ، فكل تلـك الفنون هي فنون المسلمين في هذه الاجزاء من العالم الاسلامي الذي امتد من حدود الصين شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، ومن آسيا الوسطى والبحر الاسود وجبال البرانس شمالا الى صحارى السودان والمحيط الهندي جنوبـا في وحدة ايمانية جامعـة مـا فرقتها الا الدسائس والمؤامرات .

رابعا : خصائص الفن عند المسلمين :

كان من أهم مظاهر فن المسلمين الذي فطن له بعض المنصفين من المستشرقين فاطلقوا عليه اسما معبرا عن جوهره وموضحا لفكره وفلسفته هو : الفن الاسلامي الذي تأثر بالعقيدة الاسلامية وبالايمان بالله سبحانه ، هذا الفن بهذا المعنى تميز بخصائص تجعل لـه طابعه الخاص بين الفنـون ، ويمكننا ان نشير هنـا الى أهم الخصائص التي ميزت الفن الاسلامي على النحو التالي :

أ ـ الفن عند المسلمين فن زخرفي :

اعتبر الفن عند المسلمين فنا زخرفيا لأن المسلمين استخدموا الزخرفة عنصرا بارزا من بين عناصره ، بل جعلوها عنصرا مميزا لـه عن سواه مـن الفنون لأنهم اتخذوا من هذا الفن وسيلة لتجميل الحياة والاستمتاع بزينتها وهذه الرغبة في ذاتها مستوحاة من مبادىء الاسلام ، فقد قال الله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (٣) . وقال سبحانه : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (٤) .

واذا استعرضنا سور القرآن نجد فيها كثيرا مـن الآيات التـي تذكر الزينة والجمال وتوجه نظر المسلمين الى الآيات البينات التي خلقها الله فأبدع خلقها والى

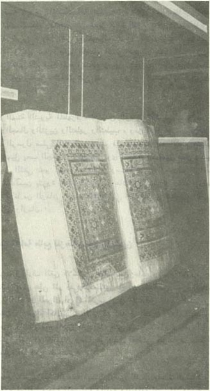

مصحف كريم زينت فيه صفحتان بزخارف الأرابسك داخل مساحات هندسية محددة

صور الجمال في الكون التي تحيط بالمسلم من كل جانب ، ومن أبدع آيات هذا الكون الانسان نفسه ، « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » (٥)، ومن مظاهر الجمال التي تحيط بالانسان تلك السماء وما فيها من جميل صنع الله ، : « وقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين » (٦) ومن مظاهر الجمال في الكون تلك النعم التي أحاطنا بها الله سبحانه والتي من أهمها الانعام التي تحدث عنها الله سبحانه في قوله : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم » (٧) ٠

وفي السنة النبوية المطهرة حث من الرسول الكريم للمسلمين على النظام والنظافة والجمال والتزين والتطهر والتطيب ، ومن أبرز ما نحن في حاجة اليه في هذا المقام قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه الامام مسلم في صحيحه : « ان الله جميل يحب الجمال » ومن هنا نرى انطلاق المسلمين ممن وهبهم الله القدرة على التعبير الفني نحو تجميل منشآتهم وصناعاتهم بالزخارف الرائعة التي ميزت الفن عند المسلمين بثروة زخرفية هائلة عاشت في شموخ وقوة واصالة اكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهي قادرة على أن تمتد في التاريخ الآتي ما يشاء الله لها من أزمان وأزمان ٠

ب ـ الوحدة العامة طابع للزخارف عند المسلمين :

تميزت زخارف الفن الاسلامي بخصائص عامة واحدة تطبعها بطابع واحد ، فلا تكاد تقع العين على اثر فني للمسلمين في أي بقعة من بقاع العالم الاسلامي في مصر او في الشام او العراق أو في المغرب او في الاندلس او في الهند او في غيرها من بلاد المسلمين ، وسواء أكان ذلك الاثر قد أعد في القرن الاول الهجري أو في القرن الثالث عشر ، لا تكاد تقع العين على ذلك حتى يستطيع مؤرخ الفن أن ينسبه في يسر وسهولة الى الفن الاسلامي ، وهذا هو الذي أعطى للزخارف عند المسلمين تلك الصبغة المميزة لها وهي الوحدة ٠

ويرجع تفسير هذه الوحدة فيما أتصور الى وحدة العقيدة والايمان بالله سبحانه اولا ، ثم الى وحدة الحضارة واللغة والثقافة التي انبثقت عن تلك العقيدة وهذا الايمان ٠

وقد وضحت هذه الوحدة في كل مجالات الفن الاسلامي التي استخدمت فيها الزخرفة كالعمارة وسائر الفنون التطبيقية ، وهذا الطابع الفني الواحد الذي ندركه في الفنون عند المسلمين فرع عن أصل عقيدي كبير أوجب على الأمة الاسلامية أن تكون أمة واحدة منذ اختارها الله لتكون الأمة الوسط الشهيدة على الناس ومنذ نزل عليها قول الله سبحانه : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٩) شكل (١) .

جـ - زخارف المسلمين استجابة لوجوب نظرتهم التاملية في الكون :

حفلت الزخارف في فنون المسلمين بالاشكال النباتية المستوحاة من الطبيعة فكانت استجابة من الفنان المسلم لتوجيه الله سبحانه وتعالى له حين طالبه لكي يعبده وحده حق عبادته أن يتأمل ويتدبر في ملكوت الله سبحانه وأن ينعم النظر في مخلوقاته عز وجل ، كما نجد ذلك في قوله تعالى : « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير » (١٠) . وفي قوله سبحانه : « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (١١) . وفي قوله سبحانه : « قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٢) .

على ان ما تحفل به الطبيعة من روائع وما يوجد بها من جمال عندما يتأمله الانسان يجد فيه مجالا أحسن مجال للاعتبار والاتعاظ ولهداية النفس والحس الى الايمان العميق المتروي القائم على التبصر والتأمل والاقتناع ، وذلك معناه ان هذا الانسان المتأمل المتدبر قد نال بذلك سعادة الدنيا والآخرة بقوله تبارك وتعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والارض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصره وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (١٣) ، الى غير ذلك من الآيات الكريمة .

وقد كان لعمق ايمان الفنن المسلم ورهافة حسه ورقة مشاعره وحبه للطبيعة عن طريق هذا التأمل ، كان لذلك أكبر الاثر في ابتكاره للزخارف النباتية التي ميزت الفن عند المسلمين على ما سواه من الفنون . شكل (٢) .

د ـ الفنان المسلم يعدل عن مضاهاة الطبيعة استجابة لدينه :

مع حب الفنان المسلم للطبيعة وتأمله لها وتدبره في جميل صنع الله فيها فقد انصرف عن تقليدها استجابة لتعاليم الاسلام في تحريم مضاهاة خلق الله سبحانه ·

ومن أجل هذا كان تركيز الفنان المسلم بعناية على ابتكار عناصر زخارفه التي استخدمها بكثرة وتنوع في العمارة والمنتجات الفنية الاخرى بأسلوب جديد مقتبس من الطبيعة ومحور عنها بحيث لا يتعارض مع تعاليم الاسلام ، فقد جاء في مثل هذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان أشد الناس عذابا الذين يضاهون بخلق الله » (١٤) ولذلك اشتهرت عن الفن الاسلامي الزخارف النباتية المحورة عن الطبيعة ذات الأفرع الحلزونية والجذوع المنثنية المتشابكة والمتتابعة بعد أن أضفى عليها الفنان المسلم تجريدا واتزانا بالغ القيمة حازت على اعجاب العلماء الغربيين أنفسهم اعجابا شديدا وكان في تسميتهم لها بـ « الأرابسك » نسبة الى العرب ـ اعتراف ضمني باصالتها وابتكارها ، وعدم وجود مثيل لها في فنون الحضارات السابقة ·

هـ ـ الفنان المسلم يبتعد عن رسم الكائنات الحية :

ابتعد الفنان المسلم في زخرفته عن رسم الكائنات الحية ذات الارواح وابتعد بشكل ملحوظ عن رسم الاشخاص خضوعا لشريعة الله وتمسكا بسنة رسوله في تحريم التصوير كما جاء في الحديث النبوي : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » (١٥) وكما جاء في الحديث القدسي : « ومن أظلم ممن ذهب بخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة » (١٦) ·

وكان لهذا أثره في زخارف المسلمين وهو خلوها وبخاصة في عمارة المسجد وفي أثاثه وفي زخرفة المصاحف من أي شكل من أشكال الكائنات الحية ذوات الارواح ·

ولكننا مع ذلك رأينا الفنان المسلم يستخدم بعض أشكال الطيور والحيوانات في استلهام كثير من الزخارف ولكنه استخدمها بشروط تجعله لا يقع في حرج مع ما تنادي به الشريعة الاسلامية ، فاستعملها في تزيين مصنوعات للاستعمال اليومي كالأواني من صحاف وأباريق ، وكالنسيج والسجاد وغير ذلك من الاشياء الممتهنة

التي أباح الاسلام فيها وجود الرسوم ذات الارواح ، فقد جاء في الحديث ان جبريل عليه السلام استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ادخل . قال : كيف ادخل وفي بيتك ستر فيه تصاوير ، فان كنت لا بد فاعلا فاقطع رأسها أو اقطعها وسائد أو اجعلها بسطا » (١٧) .

وفي رواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها حين رأت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى النمط الذي فيه تصاوير : انها قطعت منه وسادتين وحشتهما ليفا فلم يعب ذلك عليها .

وقد جاء عن السلف استعمال الصور المتهنة ولم يروا فيها حرجا ، فعن عروة انه كان يتكيء على المرافق فيها تماثيل الطير والرجال ، وقال عكرمة كانوا يكرهون ما نصب من التماثيل نصبا ولا يرون بأسا بما وطئته الاقدام وكانوا يقولون في التصاوير في البسط والوسادة التي توطأ : ذل لها .

ولم يقتصر الفنان المسلم على استخدام الزخرفة المستمدة من أشكال الطيور والحيوانات في المشغولات المتهنة فحسب بل زاد على ذلك التحوير في أشكالها وتجريدها واضافة زيادات زخرية مختلفة على أبدانها ، كما كانت تنتهي أطرافها في كثير من الأحيان بزخارف من تفريعات وأوراق نباتية او أشكال أخرى هندسية للبعد بها عن شكلها الاصلي بل تعدى ذلك الى استخدام الاشكال المركبة أو الخرافية كالأفراس المجنحة والطيور ذات الوجه الآدمي وغير ذلك .

والفنان المسلم قد استعان بخياله الخصب فعالج هذه العناصر على أساس أنه من الممكن أن تكون كذلك بصرف النظر عن شكلها الحاصل فعلا ، وهو في هذا يسير على هدي من الآيات القرآنية الكريمة : « ويخلق ما لا تعلمون » (١٨) وفي قوله « يزيد في الخلق ما يشاء » (١٩) .

ولفت نظره الى هذه الاشكال الوصف الذي جاء في كتب المسلمين للبراق وما جاء في روايات حكيت عن السيدة عائشة رضي الله عنها من انها كانت تلعب بالبنات « العرائس » ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال لها : ما هذا ، قالت : بناتي ، قال : ما هذا الذي وسطهن ، قالت : فرس ، قال : ما هذا الذي عليه ، قالت : جناحان ، قال : فرس له جناحان ، قالت : أوما سمعت أنه كان لسليمان بن داوود خيل لها أجنحة ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه » (٢٠) . شكل (٣) .

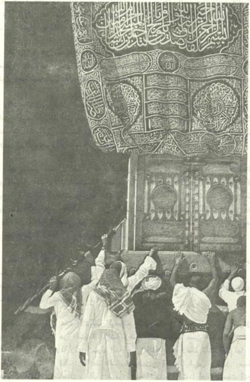

جزء مـن كسوة الكعبة المشرفة زخرفت بخط الثلث وهي تعتبر نموذجا للزخرفة في الفن الاسلامي الذي لعب فيه الخط العربي دورا كبيرا .

و ـ الزخارف الهندسية امتدادا لما برعوا فيه من علوم :

تعلم المسلمون من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم احترام سنن الله في الكون ، فكان من أول ما غرسه الاسلام في نفوس أبنائه أن هذا الكون الكبير الذي يعيش فيه الانسان لا يسير جزافا ولا يخرج عن السنن التي أرادها الله له ، وانما هو خاضع لقوانين الهية مطردة وسنن ثابتة ، أعلن عنها القرآن الكريم في قول الله تعالى : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » (٢١) ، وليس في هذا الكون من شيء الا هو خاضع لهذا النظام الالهي الدقيق وصدق الله العظيم : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » (٢٣) وقوله سبحانه : « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » (٢٣) وقوله سبحانه : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق » (٢٤) .

من أجل هذا أقبل المسلمون على العلوم الكونية يهتمون بها فكان لهم في كثير منها تفوق وتعمق كعلوم الفلك والحساب والهندسة وغيرها .

واقتبس الفنان المسلم من هذه العلوم ومن الهندسة على وجه الخصوص الزخارف الهندسية الرائعة التي انفرد بها الفن الاسلامي وتفرد فيها ، وبلغ فيها مرتبة لا تكاد تدانى .

وقد طور المسلمون الزخارف الهندسية على أسس مدروسة وابتكروا أنواعا منها لم يسبقوا اليها ، ولا شك أن من عوامل تفوقهم في هذا المجال بالاضافة الى ما عرف عنهم من نبوغ في الرياضيات ، احساسهم الموسيقي الذي تمثل فيما أثر عنهم من شعر موزون منغم .

ومن أبرز الرسوم الهندسية التي اشتملت عليها الفنون الاسلامية فأصبحت من مميزاتها : التراكيب الهندسية التي تصنع أشكالا نجمية متعددة الاضلاع .

كما نلحظ تنوع الاشكال تنوعا اشتمل على جميع التشكيلات والتركيبات الهندسية من دوائر وحلقات ومقوسات ومثلثات ومضلعات ومعينات مبسطة ومتداخلة ومركبة .

ولم تكن الزخارف عند المسلمين وحدات منفصلة مكررة كما هو الشأن عند غير المسلمين في الغالب ، وانما وضح فيها عنصر الانسيابية والاستمرار ، فالمتتبع للخط في هذه الرسوم الهندسية يجد انه يعطى احساسا بالاستمرار الى ما لا نهاية وقد يقف احيانا وقفة قصيرة ولكنه لا يلبث أن يستمر واثبا احيانا فوق الخطوط أو عابرا من تحتها او متجاورا معها فتظل فيه صفة السعي الدائب والانطلاق المستمر بحيث لا نعرف منه بداية الزخرفة ولا ندرك فيها النهاية ، ولعل الفنان المسلم في هذه الانطلاقة متأثر بقول الله تعالى : « قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » (٢٥) وبقوله سبحانه : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٢٦) .

فالعالم بكل محتوياته عند النظر فيه والتأمل في معطياته يزيد المسلم تعرفا على الله وقربا منه واقبالا على عبادته .

ولعل هذه الزخارف ذات الخطوط الممتدة والمنثنية الى ما لا نهاية ترمز الى أن المسلم لا ينظر الى الحياة على أنها أجزاء متناثرة يعبر عنها جزءا جزءا ، وانما ينظر اليها كلا متكاملا يعبر عنه بوحدة مستقلة ، لأن الاسلام علمه أن ينظر الى الحياة كذلك ، بل ربط له بين هذه الحياة الدنيا وبين الحياة الاخرى حياة الأبد والثواب والعقاب على ما قدم الانسان في دنياه من عمل ، فوضح هذا الفكر في زخرفته بحيث لا يمكن ان نوضح بداية الزخرفة ولا نهايتها .

ز ـ أثر المصحف ـ كتابة وتجليدا ـ في توجيه فنون المسلمين :

القرآن الكريم الكتاب المنزل من عند الله هو الاصل الرئيسي الذي نبعت منه الحضارة الاسلامية ، وفيه يكمن سر اصالتها وخلودها باذن الله ، فهو يهدى للتي هي أقوم ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وقد أطلق اسم المصحف على القرآن الكريم المدون المحفوظ بين دفتين ، وقد اشتقت هذه التسمية من لفظة صحف التي ورد ذكرها في قول الله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة » (٢٧) .

وكان للمصحف الشريف اثر عميق في ابتكار الفنان المسلم للزخارف الكتابية المستمدة من الخط العربي ، وفي نشأة فنون الكتاب من تجليد وتذهيب ·

واصبحت تلاوة القرآن وكتابة آياته من أعظم الوسائل التي يتقرب بها الانسان الى ربه ، فكتبت المصاحف ودونت الآيات القرآنية في المساجد ، وصارت مهنة الخطاط من أشرف المهن ، فقد امتن الله على المسلمين بأنه علم بالقلم : « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم » (٢٨) · وكان للآيـة القرآنية : « ن والقلم وما يسطرون » (٢٩) حافز قوي في نفس الفنان المسلم حفزه على الاجادة والابداع في الخط العربي بالاضافة الى ايمانه بالله وحبه لكتابه · شكل (٥) أ ، ب ·

وقد وجد الفنان المسلم في هذه الخطوط التي يجودها غنى وزادا يبتعد به عن رسوم الكائنات الحية ، وقد ساعده على ذلك طبيعة حروف اللغة العربية بما فيها من استقامة وتقويس وخطوط رأسية وأخرى أفقية فتفنن في تجميل حروفها وزخرفة نهاياتها بالنباتات بما فيها السيقان والاوراق والازهار حتى انفرد الفن الاسلامي من بين فنون العالم بالخط الزخرفي الذي استعمل في أوسع نطاق على العمارة ، بل في سائر المنتجات · شكل (٦) ·

وقد تكونت زخارف الخط العربي من أنواع عديدة منه عبر عصور تاريخ الحضارة الاسلامية ، ونستطيع ان نشير الى هذه الانواع على النحو التالي :

الخطوط المنحنية المدورة : كالخط النسخ والرقعة والثلث ·

والخط الطغرائي ·
والخط الديواني ·
والخط الريحاني ·
وخط التاج ·
والخط الفارسي ·

والخط الكوفي بانواعه المتعددة مثل : الهندسي والمورق والمزهر والمضفر ذو الحروف المترابطة وغير ذلك من انواع الخطوط التي تبارت فيها المدن الاسلامية

مثل : الحيرة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد ومكة المكرمة والمدينة المنورة وقرطبة والقيروان ، وكثير من مدن الشام ومصر ·

ولم يصل الخط العربي الى ما وصل اليه الا بعد مراحل طويلة وجهود كثيرة تكامل فيها الخط وغدا وحدة فنية رائعة مرتبطة بحاجات المسلمين الحضارية والفكرية وأصبحت من أهم مميزات الزخارف الاسلامية التي مهدت لها وزودتها بأعظم مصادرها وهي لغة القرآن الكريم ·

تاثر الزخرفة في فنون المسلمين بالمسجد ومكانته في المجتمع :

ح ـ أثر المسجد في توجيه فنون المسلمين :

المسجد في الاسلام دعامة قوية من أهم الدعائم التي قام عليها المجتمع الاسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يزال أمره كذلك وسيظل ركنا أساسيا في بناء المجتمع الاسلامي على أسس صحيحة في صورة متكاملة ·

وبغير المسجد لا تصل حركة المد الاسلامي الى مداها الذي يجب أن تصل اليه فتسمع به الدنيا كلمة الله وتبلغ دينه الى كل من على الارض من عباده الذين خلقهم ورزقهم ليعبدوه مؤمنين به وبملائكته وكتبه ورسله ، وان يدخلوا في الاسلام خاتم الأديان واكملها ·

وعمارة المسجد من أهم الاعمال التي ترضي الله سبحانه ، والتي تشهد لصاحبها بالايمان ، نجد مصداق ذلك في قول الله تعالى : « ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين » (٣٠) ·

وكذلك كان شأن السنة النبوية المطهرة في الاشادة بمكانة المسجد في المجتمع الاسلامي فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة » (٣١) ·

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب » (٣٢) ·

وكان لتمسك المسلمين بعقيدتهم وسنة رسولهم صلى الله عليه وسلم ، ولأملهم في وعد الله لهم بالجنة منطلق لتعمير المساجد وبناء المآذن التي تميز السماء الاسلامية عن غيرها ·

من أجل هذا أصبح المسجد من أهم أنماط العمارة الاسلامية التي كانت هي والفنون الزخرفية دعامتين للفن الاسلامي ، ومجالا وجدت فيه الزخرفة الاسلامية أرضا خصيبة ومنطلقات رحيبة ·

ولرغبة المسلمين في تجميل المساجد وتزيينها استخدموا فيها الزخارف الهندسية الرائعة ، والزخارف النباتية المحورة عن الطبيعة والبعيدة عنها كما أوضحنا ذلك من قبل · بالاضافة الى الخط العربي ممثلة في آيات من القرآن الكريم ·

وقد راعى أغلب الفنانين المسلمين في زخارفهم في المساجد استخدام الخامات البسيطة ذات الالوان الطبيعية الهادئة كالجص والخشب والرخام والحجر والزجاج ولكنهم حولوها بزخارفهم الى قطع فنية رائعة ·

والفنان المسلم عمد الى ذلك عملا بما رواه البخاري عن عمر رضي الله عنه عندما قال : « ابن للناس ما يكنهم واياك ان تحمر أو تصفر فتفتن الناس » ومع ذلك فقد تخلى بعض المسلمين عن هذا الحرص وأسرفوا في الزينة مما يتنافى مع بساطة الاسلام وميله للتقشف ·

ولم يقتصر اثر المسجد في الهام الفنان المسلم لنظمه المعمارية وأنماطه الزخرفية فحسب وانما أثر ذلك في انتاجه للفنون التطبيقية الرائعة التي كانت مجالا للابداع الزخرفي ، والتي كانت تعتبر ضرورة لاستخدامها في المساجد مثل أعمال النسيج التي أبدعوا منها السجاد ، والذي استمد اسمه من المسجد والذي برع فيه المسلمون مما جعله ينتشر في أنحاء العالم ويبهره ·

ومن هذه المصنوعات التحف الخشبية التي تجلت في المنابر والمحاريب وخزانات الكتب والابواب وكراسي المصاحف ، كما برع الفنان المسلم ايضا في صناعة الزجاج

ومنها على سبيل المثال : المشكاوات المموهة بالمينا التي كانت تغطي مصابيح المساجد ، وقد تخلف لنا عن الآثار الاسلامية عدد هائل من المشكاوات الزجاجية الرائعة الصناعة والتكوين ، ولعل الفنان المسلم اهتم بانتاجها متأثرا بالآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها : « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم » (٣٣) ٠

كما برع الفنانون المسلمون في صنع أباريق الوضوء من المعادن المختلفة واستخدموا في زخرفتها أساليب الحفر والتكفيت بالمعادن المغايرة لمعدن الابريق ثم انتجوا بعد ذلك مختلف الأواني لاستعمالات الحياة المختلفة ٠

وهكذا نرى أن المسجد أثر تأثيرا كبيرا على حياة المسلمين بعامة وعلى فنونهم ومصنوعاتهم التي بهرت العالم وما زالت تبهره الى اليوم بصفة خاصة ٠ أشكال ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ٠

ط ـ البساطة في فنون المسلمين استجابة لأوامر الدين :

تطبيقا لروح القرآن الكريم حرم النبي صلى الله عليه وسلم كل مظاهر الترف في حياة المسلم ، فالترف في نظر القرآن الكريم قرين الانحلال الذي ينذر بهلاك الأمم ، وهو مظهر للظلم الاجتماعي حيث تصاب القلة المترفة بالتخمة على حساب الكثرة البائسة ، وهو بعد ذلك عدو لرسالة الاسلام رسالة الحق والعدل والاصلاح ٠

يتحدث القرآن الكريم عن هذا الترف وآثاره ، وعن المترفين وعنادهم للحق فيقول سبحانه وتعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٤) ويقول عن المترفين : « وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون » (٣٥) ٠

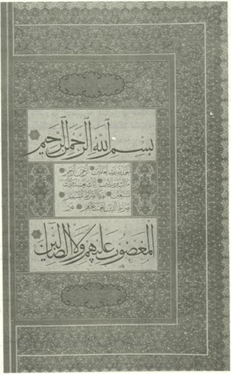
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين ● الرحمن الرحيم ●
مالك يوم الدين ● إياك نعبد وإياك
نستعين ● اهدنا الصراط المستقيم ●
صراط الذين أنعمت عليهم ● غير
المغضوب عليهم ولا الضالين

فاتحة الكتاب وسط باقة من الزخرفة الرائعة في احد المصاحف

وكما حرم الاسلام الذهب والحرير على الرجال ، حرم على الرجال والنساء معا استعمال أواني الذهب والفضة ، ففـي حديث الرسول صلى اللـه عليه وسلم « ان الذي يأكل ويشرب في آنية الذهب والفضة انما يجرجر في بطنه نار جهنم » (٣٦) ومن علة تحريمهما منع السرف والخيلاء ، ومنع تعطيل أموال المسلمين بانفاقها فيما لا يعود عليهم بالنفع ، فضلا عما في ذلك من كسر قلوب الفقراء ·

وقد كـان لموقف الاسلام مـن هذا التحريم أثر كبير في فكـر الفنان المسلم ووجدانه فراعى البساطة في استخدام وسائل التعبير ، وفي استعمال الخامات التي لا تكلف أثمانا باهظة ، وبخاصة معدنا الذهب والفضة ، مما أعطى الفنان الفرصة لكي يجعل النفاسة والروعة التعبيرية أساسا في عمله وفنـه وليس الاساس بهاظة ثمن المعادن التي استخدمت خامات لهـا وكانت منتجاته الرخيصة توازي في جمالها وبهائها أغلى وأثمن الخامات بما أضفاه عليهـا من تكوينات زخرفيـة وابتكارات صناعيـة ·

وقد استطاع الفنان المسلم ان يقدم على مدى ثلاثـة عشر قرنا من الزمان تحفا فنية رائعة زخرفهـا وصنعها مـن خامات رخيصة لا تتعدى الخشب والجص والحجر والرخام والزجاج والسن والعاج والبرونز والنحاس والحديد ·

ولم يقتصر في خاماته على ذلك بل استخدم القطن والصوف والحرير في انتاج روائـع المنسوجات والبسط والسجاد كمـا شكل الطين والصلصال فابتكر الخزف الاسلامي المشهور بالبريق المعدني الذي عوضه عن استخدام أواني الذهب والفضة ·

وقد أطلق الدارسون لفنون المسلمين مـن المستشرقين علـى هـذه الخاصية « ظاهرة التقشف » التـي شاعت عن الفن الاسلامي ، وهـي وان كانت تقشفا في الخامات الا انها ثروة وغنى في الصنعة والزخرف واللمسات الفنية ·

ى ـ الزخرفة عند المسلمين تتميز بالغنى والاتقان :

من أبرز خصائص الفن الاسلامي التي تشهد بهـا آثاره الباقية ذلك الغنى الزخرفي المتمثل في ملء المسطحات كلها بالرسوم المختلفة ، اذ لم يكتف الفنان المسلم باستخدام عناصر زخرفية واحدة ، بل استغل جميع عناصره التي أبدع فيها كالعناصر الهندسية والطبيعية المقتبسة عن الخط العربي ، وركب هذه العناصر وزاوج بينها

في اخراج تكوينات زخرفية رائعة ملأ بها جميع مسطحات منتجاته الفنية وعناصره المعمارية ، وقد أراد بذلك أن يحشد في عمله الفني كل ما لديه من عناصر ووحدات ليخرج هذا العمل في أبدع صورة فنية .

ويفسر بعض المستشرقين هذه الظاهرة بأن الفنان المسلم يفزع من أي فراغ يتركه على التحفة الفنية التي يقوم بصنعها ، وسار على منوالهم كثير من الباحثين والدارسين من المسلمين وأطلق بعضهم علـى هذه الظاهرة اصطلاح « الخوف من الفراغ » ونحن هنا نرفض هذا التفسير ، ونتصور ان السبب في هذه الظاهرة هو أن فنون المسلمين دارت مع العقيدة الاسلامية دورانا تلازميا فخدمت أغراض المجتمع الاسلامي في شتى المجالات بدرجة من الاجادة والاتقان ، وبحافز مستمد من الايمان بالله ووازع من نفس تعتقد أن الله يراهـا فيمـا تعمل ودين يطالبهـا بالتجويد والاتقان فيـه ، يقول اللـه سبحانه « وقـل اعملوا فسيرى اللـه عملكم ورسوله والمؤمنون » (٣٧) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » (٣٨) .

وبذلك أنتج الفنان المسلم هذه الآيات الفنية تحفـا لا تبارى ونماذج ليس لدقتها نظير ، وليس لجمالها وتجريدها وغناها الزخرفي مثيل ، وكل ذلك انما جاء بدافع العقيدة الاسلامية وبوازع من الايمان ، وتلك أمور جعلتـه يستهين بالزمن والجهد في سبيل التجويد والرغبة في الكمال الفني ، مع اعتقاده بأنه كلما زاد من زخارفه وتعب في اخراجها شعر أن ذلك واجبه لأن ذلك هو الاحسان الذي كتبه الله على كل شيء كما جاء ذلك في حديث الرسول صلى الله عليـه وسلم حيث يقول : « ان الله قد كتب الاحسان على كل شيء ... » .

وبعـــد :

فلعل في هذا البحث الذي قدمت في فن الزخرفة عند المسلمين وأثر العقيدة الاسلامية فيه ما يوقظ شباب المسلمين بعامة والعاملين منهم في مجال الفن التشكيلي بخاصة فيدعوهم الى الالتفات لتاريخهم الحافل وحضارتهم التي لا تدانيها حضارة فيتمسكوا بهذه الحضارة ويطرحوا كل ما عداها فيعود لنا بهذا الدين العز والتمكين ونضحي به خير أمة أخرجت للناس .

والحمد لله رب العالمين

نجاة شاكر محمد زيدان

الهوامش والمصادر

(١) سورة « الاعراف » الاية : ٣٢ .

(٢) سورة : « المؤمنون » الاية : ٥٢ .

(٣) سورة الاعراف : الاية : ٣١ .

(٤) سورة الاعراف : الاية : ٣٢ .

(٥) سورة الذاريات : الاية : ٢١

(٦) سورة الحجر : الاية : ١٦ .

(٧) سورة النحل : الاية : ٦ .

(٨) سورة الانبياء : الاية : ٩٢ .

(٩) سورة المؤمنون : الاية : ٥٢ .

(١٠) سورة الروم : الاية : ٥٠ .

(١١) سورة الانعام : الاية : ٩٩ .

(١٢) سورة يونس : الاية : ١٠١ .

(١٣) سورة ق الاية : ٥ ـ ١١ .

(١٤) الامام البخاري : صحيحه : باب اللباس : ٩١ .

(١٥) السابق : باب اللباس : ٨٩ .

(١٦) الاتحافات السنية في الاحاديث القدسية .

(١٧) الامام النسائي : سننه .

(١٨) سورة النحل : الاية : ٨ .

(١٩) سورة فاطر : الآية : ١

(٢٠) ابو داوود : سننه .

(٢١) سورة فاطر : الآية : ٤٣ .

(٢٢) سورة الفرقان : الآية : ٢ .

(٢٣) سورة الحجر : الآية : ٢١ .

(٢٤) سورة يونس : الآية : ٥ .

(٢٥) سورة البقرة : ١٤٢ .

(٢٦) سورة طه : ٥٥ .

(٢٧) سورة البنية : ١ـ٣ .

(٢٨) سورة العلق : ٣ـ٤ .

(٢٩) سورة القلم : ١ـ٢ .

(٣٠) سورة التوبة : ١٧ـ١٨ .

(٣١) اخرجاه في الصحيحين .

(٣٢) رواه احمد واهل السنن الا النسائي .

(٣٣) سورة النور : ٣٥ .

(٣٤) سورة الاسراء : ١٦ .

(٣٥) سورة سبا : ٣٤ .

(٣٦) صحيح مسلم .

(٣٧) سورة التوبة : ١٠٥ .

(٣٨) صحيح مسلم .

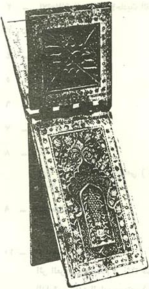

كرسي مصحف يعتبر من التحف التي ابدعها الفنان المسلم من الخشب وجمع فيها بين الزخارف النباتية والخطية

المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية

٣ ـ صحيح البخاري

٤ ـ سنن ابي داوود

٥ ـ صحيح مسلم

٦ ـ سنن النسائي

٧ ـ سنن الترمذي

٨ ـ د. ابراهيم جمعة :
حول مهرجان العالم الاسلامي (مجلة الدارة ـ العدد الثالث والرابع ـ السنة الثانية ـ بتصرف)

٩ ـ ابو صالح الالفي :
الفن الاسلامي

١٠ ـ د. حسن الباشا :
أثر العروبة والاسلام في نشاة فنون العمارة والزخرفة الاسلامية « مجلة الدارة ـ العدد الرابع ـ بتصرف »

١١ ـ د. زكي محمد حسن :
فنون الاسلام

١٢ ـ د٠ علي عبد الحليم محمود :
المسجد واثره في المجتمع الاسلامي

١٣ ـ د٠ عبد القادر الريحاوي :
الاصالة والجمال في فنون العمارة والزخرفة العربية الاسلامية ٠ (المجلة العربية ـ العدد الثاني) ٠

١٤ ـ د٠ محمد عبد العزيز مرزوق :
الفنون الزخرفية الاسلامية

١٥ ـ نجاة شاكر زيدان :
كتاب التربية الفنية للصف الأول لمعاهد المعلمات الثانوية ٠
١٦ ـ نجاة شاكر زيدان :
كتاب التربية الفنية للصف الثاني لمعاهد المعلمات الثانوية ٠

١٧ ـ د٠ يوسف القرضاوي :
الحلال والحرام في الاسلام